إشكالات معرفية ومنهجية بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية

أحمد الفراك

أولاً: العلوم التجريبية وتطوّر المنهج التجريبي

1 ـ مصادر المعرفة بين التيسير القرآني والتسخير الكوني

معلومٌ أن وحدة الخالق ووحدة المخلوق ووحدة الكون تؤسس للمشترك المعرفي في كلياته الجامعة، كما أن مصادر المعرفة لا يمكنها أن تتجاوز بأي حالٍ مصدرين اثنين هما:

أ ـ **الوحي المكتوب**: وهو رسالة اللّه تعالى المطلقة إلى الإنسان نوراً وهداية وحجة لمعرفة الحق والعمل بما يواتيه ويقتضيه؛ سعياً بالصلاح والإصلاح وإرادة الرحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ويقدم الوحي أصول المعارف والعلوم ووسائلها والغاية منها؛ معرفة الإنسان بنفسه وما يتفرّع عنها من معارف، ومعرفته بربِّه وما يتفرع عنها من علوم، ومعرفته بغيره من المخلوقات وما يرتبط بها من علوم تخصصية، ومعرفته برسالته في الوجود وما يتعلّق بها من معارف وسنن، ومعرفته بمصيره المزدوج في العاجل والآجل؛ وما يتطلبه ذلك من علم وعمل ورؤية شاملة.

باحث من المغرب.

ب ـ الكـــون المبتوت: وهـــو الفضاء الذي تســـتطيع أن تمتـــد إليه قوى الكائن البشري إن أنفساً أو آفاقاً؛ بَحراً وبَراً وجَواً، ما في السماوات وما في الأرض من كائنات حية وجامدة وأشياء، ما هو موجود وما هو في طور الإيجاد والإمداد. وفيه ومنه تتعلّم الإنسانية وتنظر وتتدبر وتفكر وتعرف... قال الله تعالـــى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

يؤكد الله تعالى على دور القوى الإدراكية الحســـية في اكتشاف المعرفة المحيطة بالإنسان، إلى جانب النظر العقلي والتدبر والتفكّر في آيات الكون ومكنوناته، وعدم الركون إلى معرفة الســـابقين، لأن التقليد الســـاذج يُعطل العقل والحسَّ معاً عن البحث والمعرفة ومراجعـــة الحقائق العلمية باعتبارها حقائق نسبية تقبل المراجعة والنقد والتجاوز، وليست نهائية من جهة كونها تنسب للإنســـان، حيث التقليد عدو العلم مبدئياً، ومن الناحية النظرية لأن «الرأي تفكير سيئ»[1]؛ إذ غالباً ما يعدّ الناس الأفكار المشهورة أو ما يسمى «بادئ الـــرأي» أفـــكاراً معقولة. والحقيقـــة على خلاف ذلـــك؛ إذ «المعاني المعقولة عند هؤلاء هي كلها خطبية؛ إذ كانت كلها ببادئ الرأي»[2].

الأســـاس العلمي للمشـــترك بين الإنســـانية يجمع بين المعرفتيـــن الطبيعية التجريبية التي موضوعها الأشياء، والإنسانية الاجتماعية التي موضوعها الإنسان.

2 ـ خصائص المنهج التجريبي:

العلوم التجريبية هي جميع العلوم القديمة والحديثة التي تتخذ «التجريب» منهجاً لاكتســـاب المعرفة وبنائها وتطويرها والتحقق من صدقيتها وســـلامتها، وقد اشـــتهر المنهج التجريبي خلال القرن السادس عشـــر لمّا انفصلت العلوم الطبيعية عن الفلسفة، واستقلت بمناهجها الخاصة وموضوعاتها المحددة.

1 ـ في معجم لالانـــد: «الرأي Doxa حالة ذهنيـــة تتمثّل في الاعتقاد بصحة قـــول معين، مع القبول بإمكان الخطأ أثناء حكمنا هذا».

2 ـ أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، 1970م، ص 134.

يتطلّب المنهج التجريبي من العالِم (الدارس/الباحث) الجمع بين شرطين منهجيين ضروريين: **أولهما:** قدرته على الجمع بين الملاحظة والتجربة، **وثانيهما:** أن يكون حذراً من الوقوع في الملاحظة الجزئية والمستعجلة؛ لأن التساهل في الملاحظة يؤدي إلى تشويه إدراك الظاهرة المدروسة، إنْ إهمالاً لبعض أجزائها أو تعميماً لبعضها على بعض. لهذا يرى «كلود برنار» (1813 ـ 1878) أنه «على الملاحظ أن يكون إذن ـ أثناء معاينته للظواهر ـ بمثابة آلة تصوير تنقل بالضبط ما هو موجود في الطبيعة، حيث يجب أن يلاحظ دون فكرة مسبقة، وعليه أن يصمت وأن ينصت إلى الطبيعة وأن يسجّل ما تمليه عليه»[1]، أو بعبارة أخرى: «أنطلق إلى الميدان وأدع الصخور تتحدث إليَّ»[2]، لكن هذا الإملاء وهذا الإنصات لا يتم اعتباطاً؛ وإنما يتحقّق باتباع الخطوات الأربع التي توفّر للباحث القدرة على الجمع بين الفكر النظري والممارسة التجريبية كما يلي:

يتطلّب المنهج التجريبي من العالِم (الدارس/الباحث) الجمع بين شرطين منهجيين ضروريين: أولهما: قدرته على الجمع بين الملاحظة والتجربة، وثانيهما: أن يكون حذراً من الوقوع في الملاحظة الجزئية والمستعجلة.

1 ـ الملاحظة الواقعية الدقيقة.

2 ـ ميلاد الفرضية تبعاً للملاحظة / المعاينة، والافتراض جواب احتمالي تقريبي سابق عن التجربة وموجّه لها في الوقت نفسه. «ويفيدنا التطور التاريخي للعلوم بأن المشاهدات تعقبها دائماً فترات من النشاط العقلي الفكري المكثّف التي يتم خلالها الكشف عن انتظام المعطيات، لتكون أساساً لاستحداث النظريات المميزة للنظرة العلمية عن العالم»[3].

3 ـ العودة إلى الواقعة من أجل تجريب مدى صدق الفرضية أو الفكرة أو التصور. «انطلاقاً من هذه الفكرة يستدل عليها ويلجأ إلى التجربة بعد أن تصوّرها ذهنياً»[4].

---

1 ـ كلود برنار، المدخل لدراسة تطور الطب التجريبي، فلاماريون، 1984، ص 51 ـ 55.

2 ـ جيمس تريفيل، لماذا العلم؟ ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، عدد 372، ص 24.

3 ـ جيمس تريفيل، لماذا العلم؟ ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، عدد 372، ص 25.

4 ـ كلود برنار، المدخل لدراسة تطور الطب التجريبي، فلاماريون، 1984، ص 51 ـ 55.

4 ـ الاســتنتاج، وهو ثمرة العمل التجريبي الذي تتأسس عليه ملاحظات جديدة تستدعي استئناف العمل التجريبي من غير انتهاء.

3 ـ مراجعة المنهج التجريبي:

تطوّر المنهج التجريبي المعاصر وأقدم على مراجعات وتجاوزات للمنهج التجريبي التقليــدي؛ إذ لم تعد التجربة في صورتها الســاذجة كافية لإنتاج حقيقة علميــة «يقينية»، بل حتى مصطلــح منهج تم التخلي عنــه مع «روني طُوم» (1923 ـ 2002)، حيث ميّز بين مصطلح «منهــج» ومصطلح «فعالية»، فنســب الأول لفلســفة ديــكارت (المنهج الشــكّي المجــرّد)، وربــط الثاني بالممارســة التجريبية، ويُعدُّ أن الجمــع بين المنهج والتجربــة كالجمع بين المتناقضات التاليــة: «ثلج مُحرق» أو «نار متجمــدة»، لهذا يرفض «طُوم»[1] اســتعمال كلمة منهج فــي العمــل التجريبي، ويســتعمل عوضاً عنهــا مفهوم الفعالية التجريبية أو الممارسة التجريبية، والتي قد تكون لها أصول سابقة عن العلم وعــن المنهج، ويمكــن أن تســتعين بالخيال، ومن أجل ممارســة تجريبية يؤكد «طُوم» على وجوب الاحتراز في تتبع الإجراءات التالية:

1 ـ عزل المجال المراد دراسته: تحديد الموضوع والزمان والمكان بدقةٍ، مع الاستعانة بالخيال...

2 ـ إعداد المجال: توفير عناصر الموضوع المدروس (مواد الاختبار: مواد كيميائية، كائنات حية...).

3 ـ القيام بالتجربة: أي تسليط أدوات البحث على الموضوع المبحوث بدقة.

4 ـ تسجيل النتيجة: بصيغة دقيقة قابلة للقياس وتستجيب للنسق المدروس...

ورغم المرور من هذه الإجراءات فإن الواقعة التجريبية وحدها لا ترقى إلى تأســيس واقعة علميــة ـ حيث ليــس كل تجريب علمــاً ـ إلا إذا حققت المطلبين التاليين:

---

1 ـ René Thom, Apologie du Logos, Hachettes, 1990, p: 607.

ـ **أولاً:** وافقت قابليتها للتكرار؛ أي تقبل إعادة الإنشاء باستمرار، «وهذا يقتضي أن تكون بروتوكولات إعداد التجربة وإنجازها دقيقة بشكلٍ يمكننا من إعادة التجربة في مجالات زمانية ومكانية أخرى»[1].

ـ **ثانياً:** أن يكون لها أثر مادي يستجيب لحاجات نافعة في حياة الناس، وأثر نظري في تطور العلم «يجعل البحث يندرج ضمن إشكالية قائمة»[2].

هذه الضوابط العلمية هي ضوابط موضوعية لا تتعلّق بذاتية الباحث وتحيّزه، إلا أن تستعمل نتائجها استعمالاً مشوّهاً ينتحل الحقائق العلمية لأغراض غير علمية. ويتحدّد معيار التحقّق من صِدقية النظرية العلمية في نظر المدرسة التجريبية عموماً في قابليتها للاختبار التجريبي، ما دامت النظرية أصلاً هي صورة ناسخة لموضوعات الواقع المادي، حيث التجربة هي منبع العلم ومحكّها ووسيلة بيان صدقها من كذبها، ولا يصح نعت معرفة ما بصفة «العلمية» ما لم تخضع للفحص التجريبي، وكل تجاوز لهذا الشرط فهو خروج من العلم وارتماء في أحضان الأسطورة والمعرفة الخيالية والمثالية المجردة.

تطوّر المنهج التجريبي المعاصر وأقدم على مراجعات وتجاوزات للمنهج التجريبي التقليدي؛ إذ لم تعد التجربة في صورتها الساذجة كافية لإنتاج حقيقة علمية «يقينية».

هذا الإصرار على تجريبية المعرفة العلمية وقصر مصدر المعرفة على المحسوسات هو ما جعل الإبستمولوجيا المعاصرة محط نقد ومراجعة وتجاوز، ومن ثم الدعوة إلى إنشاء براديغمات جديدة قادرة على إعداد أجوبة مقنعة عن الأسئلة العلمية التي تعجز التصورات التقليدية عن أن تجيب عنها، ولعل ذلك ما جعل كارل بوبر (1902 ـ 1994) ينقلب على الاتجاه التجريبي ذاهباً إلى أن المعرفة العلمية لا تطابق المعرفة التجريبية إلا إذا كانت قادرة على الاستجابة لشرط القابلية للتكذيب، وتُعدُّ «خارج مجال العلم

1 ـ René Thom, Apologie du Logos, Hachettes, 1990, p: 609.

2 ـ René Thom, Apologie du Logos, Hachettes, 1990, p: 609.

التجريبي عندما لا نسـتطيع وصـف كيف يمكن أن يأتـي التكذيب المحتمل لها... ومن ثَمَّ فإن النظرية التي تعرف مُقدماً أنه لا يمكن تبيان العيب فيها أو تفنيدها لهي نظرية غير قابلة للاختبار»[1]، وفي الاتجاه نفسه يسخر روبير بلانشي من النزعة التجريبية التقليدية قائلاً: «يميل المذهب التجريبي إلى تصوّر الفكر كقطعة الشمع الرخو التي تنطبع سلباً بطابع التجربة»[2].

4 ـ المنهج التجريبي مشترك إنساني

هذه العلوم وهذا السجال الدائر حولها مشترك إنساني، يتخذ من أشياء الطبيعة موضوعاً له بلا طلاسـم وتكهنات، معرفة بشـرية بموضوع مسـخر للبشرية تصيب فيه وتخطئ، وهذه المعرفة لا تحابي أحداً من الناس مؤمناً أو كافـراً؛ لأنها سـخرت لمن طلبهـا وأتقن مناهـج تحصيلهـا وتطويرها وتسخيرها. الفرق الوحيد يكمن في حاجة تلك العلوم إلى «فِقه القِبلة»؛ أي الفقه الذي يوجهها الوجهـة المنهاجية التي تواتي حقيقة الإنسـان بوصفه الكائن الكادح المستخلف المسؤول عن إقامة العمران في الأرض حتى ينعم الجميع بالحياة الطيبة.

واضح إذن أن «العلـوم التطبيقية والطبيعية مشـترك إنسـاني»[3]، تعتمد الملاحظة والتجريب والاستقراء، وتشحد القوى الإدراكية للإنسان لطلب الحق ومعرفة الحقيقة المبتوتة في الكون، ما دام «الحق مطلوباً لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده»[4]؛ فإن العلوم الكونية ميسـرة للإنسـانية جمعاء عزَّ مـن طلبها فوجدها فسـخّرها للخيـر، وذلَّ من نكـص على عقبيه يتوجس خيفةً وعجزاً، فأوذي باستعمال غيره لها استعمالاً يلحق به الشر.

1 ـ كارل بوبر، أسـطورة الإطار، في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة يمنى الخولي، منشـورات المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2003، ص 115 ـ 117.

2 ـ Robert Blanché, La Science Actuelle et Le Rationalisme, PUF, p. 116-120.

3 ـ طه جابـر العلواني، نحو منهجيـة معرفية قرآنية: محـاولات في بيان قواعـد المنهج التوحيدي للمعرفة، بيروت، دار الهادي، ط1، 2004م، ص 364.

4 ـ الحسن بن الهيثم، الشكوك على بطليموس، تحقيق عبد الحميد صبرة، دار الكتب، 1971، ص 3.

المسلمون اليوم في حاجة إلى تجديد الصلة بالمنهاج القرآني الذي يحث الإنسان على التلمذة المباشرة على آي الكتاب وآي الكون في تناسق وانسجام، حيث يقترن التدبر في آيات القرآن بالتفكر في آيات الكون، فيحصل «الجمع بين القراءتين»، إذ في كل منهما آيات وأسرار ومعارف يجب أن تتدبر وتدرس وتستنطق لتخرج كنوزها وثمارها... وإلا بقيت المعرفة سجينة عقيدة غير قرآنية تحمل رؤية غريبة للإنسان والحياة والكون، ولا ينفع القول بأن المعرفة لا دين لها[1].

ثانياً: العلوم الإنسانية: العلمية والموضوعية

المسلمون اليوم في حاجة إلى تجديد الصلة بالمنهاج القرآني الذي يحث الإنسان على التلمذة المباشرة على آي الكتاب وآي الكون في تناسق وانسجام، حيث يقترن التدبر في آيات القرآن بالتفكر في آيات الكون.

1 ـ تعريف:

العلوم الإنسانية هي جميع العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوعاً لها وإن اختلفت مناهجها وتعدّدت مدارسها وتنوّعت نتائجها (علم الاجتماع، علم النفس، علم الاقتصاد، علم السياسة، علم التاريخ...) وقد كانت قديماً مقترنة بالفلسفة إلا أنها انفصلت عنها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع ظهور الفلسفة الوضعية التي ترمي إلي التخلص من كل أشكال الخطاب التأملي الميتافيزيقي حول الإنسان، لصالح الدراسة العلمية والموضوعية للظواهر الإنسانية، وذلك اقتداء بما حققته العلوم التجريبية من تقدم ونجاح.

2 ـ العلوم الإنسانية وإشكال المنهج:

فهل تيسر مشروع الدراسة العلمية للظاهرة الإنسانية على غرار الدراسة العلمية للظاهرة الطبيعية؟ وهل طريق بلوغ العلمية في العلوم الاجتماعية هو

1 ـ ينظر: طه جابر العلواني، أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، سلسلة الحوار، عدد 41، ط 3، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1421هـ، 2000م، ص 44 ـ 45.

فقط تقليد ونسـخ أنموذج العلـوم التجريبيــة؟ أبالإمكان إخضـاع الظاهرة الإنسانية للدراسة نفسها التي تخضع لها الظاهرة الطبيعية؟

حاولت الفلسـفة الوضعية أن تقلّد العلوم الطبيعية في دراستها للظاهرة الإنســانية، إلا أنها اصطدمت بكون هذه الأخيرة تنفرد بجملة من الخصائص أهمها الوعي والإرادة والتعقيد والحرية، خاصة وأن الإنســان تحول من ذات عارفة إلى ذات وموضوع للمعرفة في الوقت نفســه. في حين تتصف الظاهرة الطبيعية بالعطالة والاطراد والوضوح والحتمية.

الأفعال الإنســانية واعية، تصدر عن إرادة خفية، وترمي إلى مقاصد قد لا تكون واضحة، ولا تخضع بالضرورة للاطــراد، وهي قابلة للتغير والتجاوز باســتمرار وبشــكل غير قابل للقيــاس والضبط، فــي حين تتقيــد الظواهر الطبيعية بمبادئ الحتمية والسببية والعطالة.

من هنا ينبع الإشــكال التالي: ما العمل قصد تحقيق شــرط العلمية في العلوم الإنســانية؟ أبالاقتداء بالعلوم الطبيعية أم بالاســتقلال عنها؟ إن كان بالاقتداء، فكيف نتجاوز معضلة الفارق بين الموضوعين؟ وإن كان بالاستقلال، فأي نموذج ناجح تقدمه العلوم الإنسانية دليلاً على علميتها المستقلة؟

لن نجد غير إمكانين اثنين هما:

1 ـ **إمكانية الاستيراد:** وتعني نسخ المناهج من العلوم الطبيعية وتطبيقها في العلوم الإنســانية، أو بعبارة أخرى: نَقل واســتعارة «المناهج التي كشفت عن حجّيتها فــي ميدان علــوم الطبيعــة»[1]، وتطبيقهــا في ميــدان الظواهر الاجتماعية، مــع العلم بأن الأمر يتطّلب «وضع الفاعلين بين قوســين، وذلك من خلال العمل على إبراز الأنســاق التي يمكن دراســتها عــن طريق اعتماد المناهج التي برهنت عن جدارتها في دراســة الأنســاق الماديــة»[2]. وأفضل المدافعين عن هذا الاتجاه نذكر أوغست كونت إذ يقول: «إننا ما دمنا نفكر بشــكلٍ وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزيــاء، لم يعــد بإمكاننا أن نفكر

1 ـ Jean Ladrière, La Dynamique de la Recherche en Sciences Sociales, PUF, 1994, p.5.

2 ـ Jean Ladrière, La Dynamique de la Recherche en Sciences Sociales, PUF, 1994, p. 6-8.

بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[1]

2 ـ **إمكانية الاستقلال:** وذلك بالتخلي عن استيراد نماذج العلوم الطبيعية ـ مع الوعي بالفارق النوعي بين الظاهرتين ـ وإنشاء أنموذج أصيل يوافق طبيعة الموضوع المدروس ـ الظاهرة الإنسانية ـ ويحقق صفة العلمية المغايرة لعلمية الظواهر الفيزيائية.

الإمكانية الأولى من خلالها يمكن تناول الوقائع الاجتماعية كما تتناول الأشياء المادية، أو كما يؤكد إميل دوركهايم (1858 ـ 1917) بقوله: «إن الظواهر الاجتماعية تشكّل أشياء، ويجب أن تُدرس كأشياء... لأن كل ما يعطى لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة (يعدّ) في عداد الأشياء... وإذن يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية في ذاتها، في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يتمثّلونها فكريّاً، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة عنا... إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته ودون استثناء»[2]. لكن هذا التصور يطرح صعوبة منهجية تتمثل في عدم القدرة على الإحاطة بـ«كل ما يتصل بنظام الدلالات ونسق المقاصد والغايات والقيم»[3] ما دام المنهج الوضعي لا يؤمن إلا بالحقائق الملموسة، لذلك فهو «يختزل الكلية الإنسانية ومجموع العناصر المتفاعلة والفعالة في الحياة الإنسانية في عناصرها الحسّية الملموسة»[4].
وهذا يعني فشل الإمكانية الأولى.

حاولت الفلسفة الوضعية أن تقلّد العلوم الطبيعية في دراستها للظاهرة الإنسانية، إلا أنها اصطدمت بكون هذه الأخيرة تنفرد بجملة من الخصائص أهمها الوعي والإرادة والتعقيد والحرية.

1 ـ ينظر كتاب: Les Étapes de la Pensée Sociologique. R. Aron; pp: 86-87; éd. Gallimard; 1981.

2 ـ Durkheim, Les Règles de la Méthode Sociologique, èd. Flammarion, 1988; p.103-104.

3 ـ Jean Ladrière, La Dynamique de la Recherche en Sciences Sociales, PUF, 1994, p.9.

4 ـ محمد أمزيان، العلوم الإنسانية في المنظومة الغربية؛ دراسة نقدية في الأُسس المنهجية، مجلة المنعطف، عدد 9، 1415هـ، 1994م، ص 86.

أما الإمكانيـــة الثانية والتي بموجبهـا تبدع علوم الإنســان أدواتها الخاصة ما دامت «الظاهرة الإنسانية لا تتكون من عناصر «طبيعية» على وجه القصد، بل يتدخل فيها عناصر أخــرى تنتمي إلى نظام مختلف؛ أي النظام الأخلاقــي الروحي، وتقررها إلى درجة فائقــة؛ وتلك العناصر لا تعد بالضرورة بمثابة نتائج لازمة لعناصر الطبيعة أو قابلة للاستنتاج من تلك العناصر، وهي لا تتســم بالتماثل العالمي في الجماعات الإنسانية، بـل إنها تعتمد علــى التقاليــد والثقافــة والدين والأولويات الشـخصية والجماعيــة... وليس من الممكن إخضاعها للأسـلوب القياسـي الوحيد الذي يعرفه العلم وهو الأسلوب الكمي»[1]، لا تحمي نفسها من السقوط في شـباك الذاتية حيث الإنسان هو الذات الدارسة المشـبعة بالذاتية، وهو في الوقت نفســه موضوع الدراسة، وهذا يعني فشـل الإمكانية الثانية في الاستقلال عن العلوم الطبيعية. فما العمل؟

يرى جان لادبير أن مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية بإمكانه أن ينفرد بصورتــه الخاصة للعلميــة المغايرة لما هــو عليه الأمر في مجــال الظواهر الفيزيائية، لكن المغايرة لا تفيد الاســتقلال التام عن الشكل المميّز للعلوم الطبيعيــة. وبحثــاً في إمــكان تحقــق الإمكانية الثانيــة يميّز إدغــار موران (1921 ـ ....) بين نوعين من السوسيولوجيا[2]:

- سوسيولوجيا لا تزال حبيســة التأمل الفلســفي والمقال الأدبي والفكر الأخلاقي، وتسمى: «السوسيولوجيا الإنشائية».

- وسوسيولوجيا تستعير منهجها من الفيزياء وتتناول موضوعها بالطريقة نفســها التي تتناول بها العلوم الطبيعية موضوعاتهــا، وذلك بعزل الموضوع المدروس وتخليصه مــن الذاتية وتأثير مختلف القوى المحيطة به، ويســمى هذا النوع «السوسيولوجيا العلمية».

1 ـ إسماعيل الفاروقي، صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة ـ 5، 1409هـ، 1989م. ص 12.

2 ـ Edgar Morin, Sociologie, Fayard, 1984, pp. 11-18.

في السوسيولوجيا الإنشائية لا يلزم إبعاد الذات بقدر ما ينبغي أن تحضر هذه الذات حضوراً بيولوجياً يجعل الإنسان في قلب عالمه، يحيل على ذاته كما يحيل إلى ما يقع خارجها، حيث يمتلك قدرة خلاقة في فهم الظاهرة الإنسانية وتفسيرها، وفي الشأن يقول أوغست كونت (1798 ـ 1857): «إن الاستكشاف العلمي في السوسيولوجيا ـ شأنها شأن البيولوجيا ـ يستخدم ثلاثة أنماط أساسية هي: الملاحظة الخالصة والتجريب الدقيق وأخيراً المنهج المقارن»[1].

غير أن النتائج المتوصّل إليها بهذا الشأن لا تتجاوز «نظريات غير متقنة وتفسيرات مشوهة»[2]، وافتراضات مفتقرة للإتقان وشبيهة بالحُلم، مما أسقط الأبحاث في العلوم الاجتماعية في موقع سهام النزعات الشكية والنسبية والذاتية.

في السوسيولوجيا الإنشائية لا يلزم إبعاد الذات بقدر ما ينبغي أن تحضر هذه الذات حضوراً بيولوجياً يجعل الإنسان في قلب عالمه، يحيل على ذاته كما يحيل إلى ما يقع خارجها.

3 ـ الموضوعية بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية

يقصد بمبدأ «الموضوعية» خلو المعرفة من الوقوع في آفة الذاتية، أي عدم إخضاع المعرفة العلمية للأسباب الذاتية والخصوصية للفرد أو للجماعة (علمية أو عرقية أو دينية أو سياسية أو إيديولوجية...)، والتعامل معها بشكلٍ مستقلٍ يجعل العلم علماً خالصاً، ومحايداً عن كل تحيز. «وتفترض الموضوعية أن هناك واقعاً معيناً موجوداً في الخارج، وأن البشر يستطيعون إدراك هذا الواقع كما هو، ونقل صوره إلى الذهن كما هي، ثم التعبير عنه كما هو كذلك، وأن البشر يستطيعون أن يقدموا تلك الحقائق الواقعية العلمية كما هي دون التأثر بأهوائهم وميولهم ومصالحهم، فلا يصيبها شيء يمكن أن يؤدي إلى

1 ـ Auguste. Comte, Philosophie Positive, t. IV, Leçon, 48, A. Colin.

2 ـ إسماعيل الفاروقي، صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة ـ 5، 1409هـ، 1989م. ص13.

مغايرة الواقع العلمي نتيجة نظرة ضيقة أو تحيز إيديولوجي أو غيره. وتفترض الموضوعية كذلك أن منهجاً علمياً واحداً يمكن أن يوصل إلى الحقائق الموضوعية»[1].

لقد قطعت العلوم الطبيعية أشواطاً في محاولة تحقيق شرط الموضوعية الذي به تكون المعرفة علمية وكونية في الوقت نفسه. أو قل: تحققت مما يسمى «علمية العلم»، حيث وقع الربط بشكلٍ آليٍّ بين صفتي «العلمية» و«الموضوعية»، فلا تكون نظريةٌ ما علمية إلا إذا ثبتت موضوعيتها وحيادها.

لكن الإشكال المطروح علمياً هو: هل يمكن تحقيق الموضوعية الخالصة في العلم؟ وهل نستطيع نقل تلك الصفة إلى خارج العلوم الطبيعية أم أنها مقتصرة عليها؟

استطاع الإنسان أن يحقق إنجازات ملموسة وأن يصل إلى نتائج متقدمة في العلوم الطبيعية التجريبية، لكن مع ظهور الدراسات الإنسانية كاهتمامات تسعى إلى التشبه بالعلوم التي تدرس المادة ونجحت في انفصالها عن الفلسفة وفي تحقيق رفاهية الإنسان المادية. لكن الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية هو أن هذه الأخيرة تتخذ من المادة موضوعها بينما تنصرف الأخرى إلى موضوع الإنسان ذاته. من هنا ينبع الإشكال التالي:

إذا تخلّصت العلوم الطبيعية من نزعة الذاتية (ذاتية الشخص الباحث) فهل يمكن تحقيق مبدأ الموضوعية داخل حقل العلوم الإنسانية؟ وإذا احتل الإنسان موقع موضوع المعرفة في العلوم الإنسانية وموقع الدارس لها في الوقت نفسه، فهل يمكن أن يتناول موضوعه بموضوعية؟ أو بعبارة أخرى: هل يمكن أن ينظر إلى موضوعه كشيءٍ مستقلٍ عن ذاته؟

هناك فروق نوعية بين البحث في العلوم الطبيعية والبحث في العلوم الإنسانية؛ ففي الأولى تحتفظ الظاهرة المدروسة بوحدتها وثباتها وانسجامها، ولا تصطدم بمصالح وقيم الناس؛ لكن الثانية تعاني من تعطيل

1 ـ طه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهادي، ط1، 2004 ـ 1425هـ، ص212.

مبدأ الموضوعية، حيث يعترض عمل الباحث والعالم مجموعة من العوائق الشخصية والفكرية والنفسية والإيديولوجيا (مثل: الخلفية الإيديولوجية، النزعة النفعانية، غياب روح النسقية، انعدام الرؤية النافدة، الغرور والطبع الانفعالي، غياب النزاهة الفكرية...)؛ بالإضافة إلى المواقف والآراء والقناعات اللاشعورية التي لا تفارق تفكير الباحث. لهذا يرى «لوسيان غولدمان» (1913 ـ 1970) أنه لا يمكن لتطبيق المنهج الديكارتي أن يحقق الفهم الموضوعي للظاهرة الإنساني؛ وذلك «لأن الباحث يتصدى في الغالب للوقائع مزوداً بمفاهيم قبْلية ومقولات مضمرة ولا واعية تسد عليه طريق الفهم الموضوعي بشكلٍ قبلي»[1].

إنّ الباحث في العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتخلص من إملاءات اللاشعور الثاوية في عمق بنيته النفسية والفكرية ومن تمثلاته وانفعالاته وعواطفه، وبناء عليه لا يمكن تحقيق التصور الوضعي في النظر إلى الظاهرة الإنسانية كشيءٍ من الأشياء.

نستنتج إذن أن الباحث في العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتخلص من إملاءات اللاشعور الثاوية في عمق بنيته النفسية والفكرية ومن تمثلاته وانفعالاته وعواطفه، وبناء عليه لا يمكن تحقيق التصور الوضعي في النظر إلى الظاهرة الإنسانية كشيءٍ من الأشياء.

لهذا يرى محمد عابد الجابري أنه من غير الممكن التحرر من الأيديولوجيات في الدراسات الإنسانية[2]، وتؤكد «رينيه بوفريس»[3] أن الفلسفة الوضعية أخفقت في زعمها إمكان تحقيق شرط الموضوعية في العلوم الإنسانية لما ذهبت إلى أن الفكر العلمي قد حقق آخر الفتوحات العلمية لما تخلَّص من الميتافيزيقا والفلسفة المجردة بصفة نهائية، وطردها من آخر حصونها (الإنسان)، وكان تاريخ الفلسفة هو تاريخ تراجعاتها كما يقول «أوغست كونت»، فرأت الوضعية أنه بإمكان تحقيق الدراسة العلمية

1 ـ Lucien Goldmann, Siences Humaines et Philosophie, èd. Genthier, Mèditations, 1966, pp. 23-24.

2 ـ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1989، ص23.

3 ـ رينيه بوفريس، علوم الإنسان والفلسفة، ترجمة محمد علي مقلد، العرب والفكر العالمي، العدد 6، بيروت، 1989، ص 36 ـ 46.

الموضوعية الدقيقة للإنسـان كواقع اجتماعي ملموس بعيداً عن السـقوط في الذاتيـة، وذلـك بتجنـب إقحـام «الفرضيـات غيـر المحققـة والتعميمات الاعتباطية» في المعرفة. لكن السؤال الإشكالي الذي تطرحه «رينيه بوفريس» على الفلسفة الوضعية هو: هل تسـتطيع العلوم الإنسانية أن تحقق الاستقلالية والموضوعية كما الشأن في العلوم الطبيعية؟ أم إنها تحتفظ بموضوعية خاصة وناقصة ومزعومة؟

تجيب «رينيه بوفريس» بأن المعرفة المتعلّقة بموضوع الإنسان تظل مشبعة بالذاتيـة، ولا تملـك أن تكـون محايـدة أو موضوعيـة، بل تظـل غارقة في الإيديولوجيا، حيث تؤكد أنه من المستحيل مبدئياً أن تتمكن العلوم الإنسانية من بلوغ موضوعية مطلقة، أو على الأقل التخلي عن جزء من أهدافها والاكتفاء بدراسة المظاهر الأولية من الحقيقة أو الواقعة الإنسانية.